

أتباع سان سيمون ونشاطهم في مصر

(١٨٣٣ - ١٨٣٦)

د. محمود صالح منسى

سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) :

ينتسب السان سيمونيون إلى المكونت « هنرى دى سان سيمون Claude Henri de Rouvroy de Saint Simon » صاحب المذهب الاشتراكي الذي نشأ في فرنسا خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر ؛ فقد كان دائماً التفكير في أحسن الوسائل للمفوض بالإنسان والمجتمع الإنساني كله ، وصار يرى أن هذا الأمر لا يتحقق إلا بوسيلتين هما العلم والصناعة . ولذلك وثق « سان سيمون » صلته بكثير من أساتذة وخريجي مدرسة الهندسة العليا Ecole Polytechnique ، ورغم قلة ما لديه من مال فقد استطاع — بمعونة بعض أصدقائه — أن يصدر بعض المطبوعات مثل صحيفة « الصناعة L'Industrie » وصحيفة « السياسة La Politique » وكتاب « للنظم L'Organisateur » وكان آخر ما كتبه هو (المسيحية الجديدة Le Nouveau Christianisme الذي ظهر في إبريل من عام ١٨٢٥ وفيه أوجز « سان سيمون » الرسالة التي يجب أن يضطلع بها القرن التاسع عشر ألا وهي تحسين أحوال الطبقة العاملة أكثر الطبقات عدداً وأشدّها بؤساً .

ويعتبر « سان سيمون » مؤسس الاشتراكية الفرنسية ، فقد آمن بالمبادئ الاشتراكية وعمل على نشرها ، ولما كان يعتقد أن تقدم العالم مرهون بأمرين اثنين هما العلم والصناعة فقد دعا إلى قيام دولة صناعية على أن يديرها العلماء لا الطبقات الأرستقراطية أو العسكرية ، وعلى أن تستهدف هذه الدولة إنتاج الأشياء المفيدة للحياة باستغلال قوى الطبيعة استغلالاً علمياً منظماً يقوم على التعاون بين الأفراد . كما كان « سان سيمون » يرى وجوب امتلاك المجتمع لأدوات الإنتاج حتى يتحرر العامل من الفاقة والبؤس ومن الشروط المحجفة التي كان يفرضها عليه أصحاب العمل ، وتضطره ظروفه القاسية من الجوع والحرمان إلى قبولها ، وبذلك لا يتحجم

أصحاب العمل في المال ، ويصبح العمل متوفراً لكل قادر عليه ويعطى كل فرد حسب إنتاجه .

وإلى جانب ذلك كان (سان سيمون) يتفق أن يرى المجتمع الأوروبي وقد ألقى السلاح ونبذ الحروب وجنح إلى السلام ، ووسيلة ذلك — في رأيه — العمل على الحد من التعصب الوطني وإيجاد نوع من الاتحاد بين شعوب أوروبا ، مع احتفاظ كل منها باستقلاله القومي وحكومته المحلية ، على أن تقوم أنظمة للحكم متشابهة في مختلف الأقطار الأوروبية من شأنها أن تساعد على التقارب بينها ، وإلى جانب هذه الأنظمة المحلية تقوم حكومة عالية وبرلمان أعظم لتنفيذ المشروعات العامة التي تعود بالنفع على المجتمع الأوروبي كله .

ومن الأسس المهمة التي قام عليها مذهب (سان سيمون)، دعوته إلى الجمهورية كنظام للحكم في المجتمع الصناعي الذي نادى بقيامه ، فقد كان يرى أن الجمهورية أفضل النظم لأنه في ظلها تتوفر الحياة الحرة السريعة لكل مواطن دون استغلال .

وبعد وفاة (سان سيمون) في ١٩ مايو ١٨٢٥ خلفه في زعامة أتباعه الأب (روسير انفاتان Prosper Enfantin) واستمر نشاط الجماعة وازداد عدد أعضائها وانضم إليها كثيرون من خريجي مدرسة الهندسة العليا الذين كانوا يعتبرون من أفدر الناس على تحقيق أفكار السان سيمونيين وتنفيذ مشروعاتهم ، حتى لقد كان (انفاتان) يعتبر أن مدرسة الهندسة العليا هذه هي المصدر الذي تشيع منه أفكارهم في المجتمع ، وأن العلم الذي رشفه أعضاء الجماعة في هذا المعهد الأثير هو الذي سيفعذى الأجيال التالية (١) .

ولم تلبث الحكومة في فرنسا أن رأت في وجود جماعة السان سيمونيين خطراً يهدد الأمن العام ونظام الحكم القائم ، واتهمتهم بأنهم في أحاديثهم يحضون الناس على الثورة ، ولذلك فسرعان ما عمدت إلى حل الجماعة وأودع زعمائهم سجن (سان بلاجي St. Pelagie) منذ ديسمبر ١٨٣٢ حتى أغسطس ١٨٣٣ عند ما اعترزوا الرحيل إلى مصر .

السان سيمونيون ومشروع القناة :

لقد كان مجيء السان سيمونيين إلى مصر عام ١٨٣٣ يهدف أولاً وقبل كل شيء

إلى تنفيذ مشروع القناة بين البحرين المتوسط والأحمر ، وقد راودت هذه الفكرة (سان سيمون) مثلها راودته فكرة شق قنوات أخرى مثل قناة (انباريدو) في الكسيك بين المحيطين الأطلنطي والمحادي ، والقناة بين مدريد والبحر المتوسط ، والقناة بين الدانوب والراين ، والقناة بين الراين وبحر البلطيق ، إلا أنه عندما مات (سان سيمون) عام ١٨٢٥ لم يكن قد تجاوز مرحلة التفكير في مشروع القناة بين البحرين المتوسط والأحمر ، فترك الفكرة لأتباعه يتعهدونها ، فأخذ خليفته (انفانتان) يعمل من أجل شق هذه القناة التي اعتبرها — هي وقناة بناما — ذات أهمية قصوى في سبيل تقدم التجارة وما سوف يترتب على ذلك من ازدهار الحضارة وربط خموص العالم بعضها ببعض ، ورغم أن الحكومة الفرنسية حلت الجماعة وسجنت زعماءها فلم يفتأ هؤلاء في سجنهم يفكرون في المشروع ، حتى أصبحت أفكار الأب (انفانتان) وخططه — عندما أطلق سراحه في أغسطس ١٨٣٣ تدور حول الرحيل إلى مصر وشق قناة في برزخ السويس ، فأعرب انفانتان في إحدى رسائله بتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٣٣ إلى زميله (بارو Barrault) عن اعتقاده بأنه « يقع على عاتقنا أن نشق بين مصر وبلاد اليهود القديمة (يقصد فلسطين) طريقاً من الطرق الجديدة التي تصل أوروبا بالهند والصين ، وسوف نشق بعدئذ طريقاً آخر في بنما ، وبذلك نضع أحد أقدامنا في بلاد النيل والآخر في بيت المقدس ، في حين يمتد ذراعنا الأيمن على مكة ويصل ذراعنا الأيسر إلى روما . ويظل مرتكزاً على باريس ، إن السويس هي مركز حياتنا العملية ، وفيها سوف نفذ العمل الذي ينتظره العالم منا لكي نثبت قوتنا وشدة بأسنا » (١) .

وتحدث (انفانتان) مرة أخرى عن واجب إحياء مشروع توصيل البحرين المتوسط والأحمر فكتب في ٢٨ أغسطس ١٨٢٣ إلى (اردوان M. Ardoin) — أحد الذين يهتمون بنشاط سان سيمونيين ويعملون معهم — مؤكداً أن قيام سان سيمونيين بتوصيل البحرين يعتبر عملاً عظيماً ، وأن الإسهام في هذا العمل يجب أن يصدر عن شعور قوى فيض بالحماس والإخلاص « لأن المجد سوف يكون جزءاً أولئك الجنود السالمين الذين سوف يضطلعون بتنفيذه » (٢) .

(١) Lettre d'Enfantin à Barrault, citée dans : Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX, pp. 56, 7; D'Allemagne, p. 357.

(٢) Lettre d'Enfantin à M. Ardoin en 28 août 1833 (Arsenal 7647, fo. 490) citée dans : Oeuvres T. IX, p. 64; D'Allemagne, p. 359.

ولقد عبر زعماء السان سيمونيين الآخرون مثل أرلس دوفور Arles Dufour و (فورنل Fournel) عن نفس الآراء .

ويرجع اهتمام السان سيمونيين بمشروع القناة ومحاولة تنفيذه وتعسكهم به قرابة قرن من الزمان ، أنه كان شديد الصلة بالمبادئ التي آمنوا وبشروا بها من عهد زعيمهم الأول (سان سيمون) ولأن المشروع كان يحقق كثيراً من الأهداف التي يسعون إلى تحقيقها ، فقد أعلن الأب (انفانتان) أن المشروع يعتبر أولى ثمرات سياستهم الاقتصادية^(١) ، إذ كان التصنيع أساس فلسفة (سان سيمون) الاجتماعية باعتبار أن المجتمع الصناعي هو أفدر المجتمعات على إسماعد المواطنين ، ولكي يستمر النشاط الصناعي كان لا بد من قيام حركة واسعة للتبادل التجاري بين الشرق والغرب من أجل الحصول على المواد الأولية وتصريف منتجات المصانع ، وكان شق القنوات المائية في مقدمة أنواع المواصلات التي تسهل التبادل التجاري .

وإلى جانب ذلك كان السان سيمونيون يرون أن النزعة القومية سوف تختفي لتحل محلها فكرة الإنسانية العالمية والوحدة المشتركة إذا ماتم ربط جهات العالم بوسائل المواصلات المختلفة ومنها القنوات المائية والسكك الحديدية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من الطبيعي أن تنسب أفكار السان سيمونيين الاشتراكية والجمهورية في إثارة سخط الحكومة في فرنسا وأن تنظر بدم الارتياح إلى مساعيهم لنشر هذه الأفكار وكسب الأعوان ، لما في ذلك من خطر على الملكية وعلى الطبقة المتمسكة في فرنسا في عهد (لويس فيليب) وهي الطبقة المتوسطة ، حتى لقد اعتبرت الحكومة الفرنسية أحاديثهم ومقالاتهم إنعاهى وسائل لحض الناس على الثورة ضد السلطات القائمة . ومما زاد في كراهية السان سيمونيين أنهم كانوا يتطلعون إلى تولى الحكم في فرنسا واعتقدوا أن الواجب يقتضى الملك (لويس فيليب) أن يتخلى لهم عن مكانه لأنهم أكثر منه مقدرة وكفاءة على تسلم أمانة الحكم . وقد كتب (ميشيل شيفالييه M. Chevalier) وهو في السجن يتنبأ بأنهم سيصلون إلى مقاعد الحكم خلال أربع سنوات . ولم يكن (شيفالييه) يرى ضرورياً أن يرأس الأب (انفانتان) حكومة جمهورية في فرنسا أو يتولى الوزارة فيها فرد بذاته

من قادة السان سيمونيين ، بل كان مقصده أن يتولى الحكم في فرنسا أناس يؤمنون وحسب بالمبادئ السان سيمونية (١) .

لهذه الأسباب جميعاً لم تعد الحكومة الفرنسية راضية عن هذه الجماعة ، وإنما اعتبرتهم عنصراً من عناصر الفتنة والاضطراب وأنهم يتخذون من العمل على تحسين أحوال الفقراء ستاراً يخفون وراءه نواياهم الحقيقية ، ولذلك أخذت في مطاردتهم ولم تلبث أن قدمت — في أغسطس ١٨٣٣ — زعماءهم وخصوصاً الأب (انفانتان) و (ميشيل شيفالييه) إلى المحاكمة بتهمة القيام بأعمال مضرة بالنظام الاجتماعى القائم ، وصدر الحكم في ٣٠ أغسطس من نفس العام بالسجن عاماً على زعمائهم كما نص الحكم على حل الجماعة ومصادرة مطبوعاتها .

وشعر السان سيمونيون بشدة وطأة الحياة التي صاروا يحبوها في فرنسا بسبب الاضطهاد الذي لاحقهم به السلطات الفرنسية الأمر الذي جعل (بتي Petit) يحبذ رحيل الأب (انفانتان) ليقضى فترة من الوقت بعيداً عن فرنسا حتى يهدئ لنفسه سبيل العودة « فلا يعود خائفاً مكروهاً مهيناً كما كان ، ولكن ليعود وقد اكتسب محبة الناس وصار هؤلاء يرغبون في عودته . . . » وذلك بقيامه بعمل مجيد خارج فرنسا يضفي عليه الشهرة (٢) ، ويؤدي إلى رد اعتباره (٣) .

وهكذا نرى أن السان سيمونيين عندما أحسوا بأن حكومة فرنسا قد صارت غير راضية عنهم أخذوا يتعدثون عن مشروع يشغلون به جهود الجماعة ، يكون ميدانه خارج فرنسا ذاتها ، ومن شأنه العودة بالنفع على فرنسا وتقوية مركزها وذلك حتى يكسبوا رضا الحكومة الفرنسية ، ذلك الرضا الذي افتقدوه بسبب أعمالهم وآرائهم التي رأت فيها خطورة على الحكم القائم في فرنسا آنذاك .

واقعد كان بسبب هذه الرغبة إذاً أن قرأى السان سيمونيين على الرحيل

(١) Lettre de M. Chevalier à Algae St. Hilaire, sans date, Arsenal 7706 : D'Allemagne, p. 316.

(٢) Lettre d'Alexis Petit à M. Lemonnier en août 1833, Arsenal 7771 : D'Allemagne, p. 357.

(٣) Aisenal 7704, D'Allemagne, p. 360.
Lettre de M. Chevalier à Arlés Dufour en 28 août 1833,

إلى مصر ، التي أرادوا أن تقوم بها « خارج فرنسا » أكبر مشاريعهم الإنشائية إطلافاً ، فيقوى بفضلها مركز فرنسا ، أما المشروع الذي أرادوا تنفيذه ، فكان حفر قناة تربط — بطريقة ما — بين البحرين المتوسط والأحمر ، ذلك المشروع الذي كانت فرنسا توليه أهمية خاصة ، وبذلك ترتفع مكانة السان سيمونين في نظر حكومتهم ويثبت لها نعمهم كجماعة تعمل لصالح الأمة الفرنسية .

أما الحكومة الفرنسية فقد كانت من ناحيتها ترحب برحيل السان سيمونين ، حتى لقد صار المسئولون الفرنسيون يشجعون أصحاب السفن التجارية على نقل السان سيمونين إلى الشرق على أن يقوم المسئولون بسداد نفقات الرحلة إذا عجز السان سيمونين عن سدادها .

وقد لفت نظر السان سيمونين موقع مصر ، فهي كما يقول الأب (انفانتان) أهم أجزاء أفريقية ، يمر بها المسلمون من مختلف أنحاء القارة في طريقهم إلى الأماكن للقدسة ، كما أنها تقع في أكثر الجهات ملائمة لتسيير الحملات إلى مختلف الجهات ، ولدى أهلها استعداد لتذوق العلوم والمعارف ، وبذلك يمكن القيام في هذه البلاد بمشروعات متنوعة تعود عليها وعلى العالم كله بالفائدة كمشروع حفر قناة تصل بين أوروبا والهند فتستفيد مصر عندما تصبح ممراً لتجارة العالم كله ، وتستفيد أوروبا نتيجة اقترابها من أسواق الشرق ^(١) .

وكان مما شجع السان سيمونين على اتخاذ مصر مسرحاً لنشاطهم من جهة وميداناً لمد نفوذ فرنسا من جهة أخرى ، أنه كان يوجد في هذه البلاد عدد غير قليل من الأوروبيين ، ومن الفرنسيين خصوصاً ، على رأس كثير من المؤسسات التعليمية والصناعية والعسكرية ، واعتقد السان سيمونين أنه بمعونة هؤلاء ، وكذلك بمعونة الشبان المصريين الذين كانت توفدهم مصر لتلقى العلم في فرنسا ، يستطيعون تنفيذ هذه المشروعات .

ومن ثم فقد كانت الفكرة التي سيطرت على ذهن الأب (انفانتان) وأعووانه هي غزو مصر اقتصادياً واجتماعياً وليس جرياً سياسياً ، وذلك عن طريق الإسهام

(١) Lettre d'Enfantin à Barrault en 8 août 1833 : Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin T. IX pp. 56-7 ; D'Allemagne, p. 357.

في المشروعات التي يتسنى بفضلها إعطاء فرنسا مركزاً ممتازاً في مصر ، وقد بلغ من إيمان السان سيمونيين بضرورة بسط نفوذ فرنسا في مصر أنهم صاروا يدعون الحكومة الفرنسية إلى تأييد دعاوى الدول الأوروبية الأخرى وخاصة روسيا وإنجلترا في أملاك الدولة العثمانية الأخرى حتى لا تلقى فرنسا معارضة من جانب هاتين الدولتين خصوصاً قد تحول دون بسط النفوذ الفرنسي في مصر ، فقد اعتقد الأب (أنفانتان) أن ثمة ضرورة ملحة فرضتها « السماء » حتى يشهد القرن التاسع عشر آثارها ألا وهي استعمار الغرب للشرق « لأن الله يدعو روسيا صوب الأناضول وفرنسا صوب مصر ، وإنجلترا صوب أرض الفرات من أجل إدخال المدنية الأوروبية إلى هذه البلاد المتخلفة ونشر ألوية الحضارة بين ربوعها وذلك بالقيام بحملات صليبية سلمية لنشر الحضارة المسيحية ودعم أركانها »^(١) وهذا (لامبير Lambert أحد الذين اشتركوا في رحلة السان سيمونيين إلى مصر يكتب إلى أنفانتان في ١٧ ديسمبر ١٨٣٣ بأن فرنسا كانت قد بدأت حملة مسيحية صليبية جديدة على عهد الجمهورية عام ١٧٩٨ — ويقصد حملة بونابرت على مصر — وأن ذهاب السان سيمونيين الآن (١٨٣٣) إنما معناه تجديد هذه الحملة لبلوغ الغاية ذاتها .

وهكذا نرى كتابات السان سيمونيين أنفسهم تدحض ما ذهب إليه البعض من أن مشروع رحلة السان سيمونيين إلى مصر لتوصل البحرين قد صدر عن رغبات نبيلة وأفكار وآراء سامية .

✱ ✱ ✱

الاعداد لتنفيذ المشروع :

وإذ حدد السان سيمونيون هدفهم من الرحيل إلى مصر حتى شرعوا في الاستعداد لتنفيذ المشروع ، وكانت استعداداتهم فنية هندسية من ناحية وسياسية من ناحية أخرى ، وقد اضطلع بالجانب الفني المهندس (فورنيل Fournel) الذي أخذ في دراسة المشروعات السابقة لتوصيل البحرين وبخاصة الأعمال التي قام بها في برزخ

Lettre d'Enfantin à Arlès Dufour en 13 Janvier 1836, (١)
Arsenal 7615, fo. 400 : Oeuvres de St. Simon. T. XI p. 9; D'Allemagne, p. 328.

السويس للمهندس لوير Lepère على عهد الحملة الفرنسية ، كما نشط السان سيمونيون في ضم عدد من المهندسين من خريجي مدرسة الهندسة العليا بمختلف أقسامها .

كما مهد (أنفانتان) لرحيله إلى مصر بإيفاد مجموعات متتابعة من أعوانه لإعداد العدة لاستقباله هو ومرافقيه ، وكانت أولى هذه المجموعات تلك التي وصلت إلى الإسكندرية آخر أبريل ١٨٣٣ ، وبمجرد وصولها شرعت في الدعاية لمبادئ الجماعة ، وفي ٢٠ مايو من نفس العام وصلت مجموعة ثانية على رأسها (بارو Barrault) عن طريق الآستانة التي لم يستطيعوا البقاء فيها لعدم رضا الحكومة العثمانية عن مبادئهم حتى أبعدتهم عن البلاد^(١) ، فجاءوا إلى مصر وبدأوا بخلق ملائمتهم الغربية وحلق ذقونهم حتى لا يبدو منظرهم غريباً فتساء معاملتهم كما حدث لهم في الآستانة .

وهكذا تجمع في مصر من السان سيمونيين نحو عشرين شخصاً قبل وصول الأب (أنفانتان) ومن معه من فرنسا ، وقد قام (بارو) ومن معه — قبل وصول أنفانتان — ببعض الدراسات الفنية في منطقة برزخ السويس .

أما النشاط السياسي للسان سيمونيين فيتجلى في محاولة جس نبض الحكومة العثمانية وكذلك حكومة إنجلترا لمعرفة إلى أي حد يمكن أن تؤيد كل منهما المشروع أو تعارضه ، ولذلك كتب (فورنل) إلى أحد المتصلين بجماعة السان سيمونيين وهو دكتور (بايلي Bailly) يطلب منه أن يتعرف على وجهة نظر إنجلترا إزاء مشروع توصيل البحرين وذلك عن طريق ممثليها في الآستانة .

ولم يكن رد دكتور (بايلي) مشجعاً ، لأنه — كما ورد في خطابه إلى (فورنل) في أغسطس ١٨٣٣^(٢) — خرج من اتصالاته في الآستانة بنتائج مفادها أن إنجلترا تخشى أن يترتب على تنفيذ مشروع القناة ازدياد نفوذ (محمد علي) في مصر بحيث يتفوق على غيره من الحكام الآخرين الذين يتولون الحكم في الأقطار العديدة التي تتكون منها الدولة العثمانية ، كما كانت إنجلترا ترى أنه من الواجب عليها إبقاء الهند

(١) Lettre de Cognat au Père Enfantin en 9 mai 1833, Arsenal 7708 ; Lettre de Barrault à Enfantin en 9 mai 1833, Arsenal 7646 fo. 128, D'Allemagne 375.

(٢) Lettre de Dr. Bailly à Fournel en Août 1833, Arsenal 7647 fo. 186, D'Allemagne pp. 358-9.

بنأى عن دائرة نشاط فرنسا والنمسا ، وأنه إذا صارت بحار الهند — بعد شق قناة بين البحرين المتوسط والأحمر — في متناول الأساطيل الفرنسية والنمسية فإن مركز إنجلترا في الهند سوف يكون حرجاً ، ومن ثم فإن إنجلترا — كما يقول (بايلي) — لا توافق على المشروع ، وإنه إذا كان الإنجليز يبحثون في استخدام طريق الفرات والخليج الفارسي للوصول إلى الهند ، فذلك من أجل البريد لا من أجل التجارة التي يقنعون بنقلها عن طريق الرأس .

السان سيمونيون وفكرة الحياض :

وإلى جانب ذلك بحث السان سيمونيون وسيلة تنفيذ المشروع وتمويله ، وتوصلوا إلى أنه من الأفضل أن يكون التنفيذ جماعياً فدعوا إلى مساهمة الدول حتى لا تحاول واحدة منها — وعلى الأخص إنجلترا — الحصول على امتيازات خاصة ، ومن أجل ذلك أعربوا عن أملهم في أن ينعقد (مؤتمر أوروبي) من ملوك الدول الأوروبية لبحث تنفيذ المشروع (١) .

وقد بلغ من إيمان السان سيمونيين بفكرة (تدويل) مشروع القناة أنهم فكروا في فصل منطقة برزخ السويس عن مصر وادعى (أنفانتان) أنه لا يوجد ثمة ارتباط بين البرزخ ومصر ما دامت الصحراء تفصلهما عن بعضهما .

الرحلة :

وفي ٢٩ أغسطس ١٨٣٣ غادر الأب (أنفانتان) باريس مع بعض رفاقه إلى ليون ، ومنها إلى مرسيليا انتظاراً لسفينة تقلهم إلى مصر .

وفي أثناء وجوده في مرسيليا أوفد (أنفانتان) زميله (دوجويه Duguet) إلى مصر لإعداد العدة لاستقبالهم ، وقد زوده (فورنيل) ببعض التعليمات من أهمها الإلمام ببعض المشروعات العلمية والصناعية التي كانت تشغل بال (محمد علي) وذلك تمهيداً للمشاركة فيها حتى تثبت أقدامهم في البلاد . وأخيراً غادر (أنفانتان) ميناء مرسيليا في صباح الثالث والعشرين من سبتمبر ١٨٣٣ على ظهر السفينة (ولي العهد

Prince Hereditaire ، وبعد شهر كامل رست الباخرة به في ميناء الإسكندرية في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٨٣٣ ، ومعه ذلك نفر من أتباعه المتخصصين في الهندسة والزراعة والطب والتعليم والفنون ، أولئك الذين عزم (أنفانتان) أن يكون منهم جالية صغيرة يعمل على زيادتها بالتدريج طبقاً للحاجة إلى خدماتهم ، وإذا ما رأى أن هذا الفوج الأول قد أظهر كثيراً من الكفاءة وحقق كثيراً من الفائدة (١) .

ولم يكن (أنفانتان) مطمئناً لترحيب (محمد علي) بهم بعد طردهم من فرنسا ومن الدولة العثمانية وانعزاع مبادئهم ، ولذلك بدأ السان سيمونيون بمحاولة توطيد علاقاتهم بأفراد الجالية الفرنسية في البلاد وفي مقدمتهم (ميمو Mimaut) القنصل و (فردينان دى لسبس) نائبه وقد استطاع الأخير إقناع (محمد علي) بتركهم يقيمون في مصر ووعده بأن يستخدم سلطاته القنصلية في ترحيلهم عنها إذا ما سببوا اضطراباً للأمن العام (٢) .

وعند ما فاتح السان سيمونيون القنصل الفرنسي بشأن مشروعاتهم لشق قناة بين البحرين نصعهم بعدم مفاخرة (محمد علي) إلا بعد إعداد مذكرة مدروسة دراسة وافية على أن يهدوا لمشروعاتهم بالدخول أولاً في خدمة الباشا حتى يستكملوا دراسة المشروع ويحوزوا ثقة الباشا فيسهل عليهم بعد ذلك الحصول على موافقته على المشروع .

دراسات السان سيمونيين التمهيدية لمشروع القناة :

وقبل وصول (أنفانتان) إلى مصر قام بمض أتباعه من سبقوه وهم (الريك Alric) و (كولان Colin) بدراسة منطقة السويس في بداية أكتوبر ١٨٣٢ وفي ١٦ نوفمبر ١٨٣٢ بعث (أنفانتان) بنفر آخر لدراسة منطقة البرزخ تمهيداً للرحلة التي كان يزعم هو القيام بها بنفسه .

وفي ٢٠ يناير ١٨٣٣ قام (أنفانتان) بالرحلة إلى منطقة البرزخ ومعه عدد

(١) Lettre d'Enfantin à Coïonel Brack : Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX, p. 140.

(٢) Bridier, L. : Une Famille Française -- Les De Lesseps, p. 330.

من أتباعه المهندسين ، فطافوا بفرع دمياط وزاروا المنصورة وزفتى ثم اتجهوا بعد ذلك إلى قلب البرزخ وساروا بمحاذاة بقايا القناة القديمة حتى وصلوا إلى البحيرات المرة . وقامت بعثة السان سيمونيين خلال هذه الرحلة ببعض الأعمال الفنية الهندسية المتصلة بالمشروع فأجروا بعض المقاييس ووضعوا الخطوط الرئيسية لمشروع قناة .

وبينما كان (أنفانتان) وبعض أتباعه يقومون بهذه الدراسات في برزخ السويس ، كان (فورنل) في القاهرة لإقناع (محمد على) بالمشروع ، وبفضل تزكية القنصل الفرنسي استقبل (محمد على) (فورنل) في الساعة التاسعة من مساء اليوم الثالث عشر من يناير ١٨٣٤ وفي خلال الحديث ذكر (محمد على) أنه يبحث بتنفيذ مشروع خط حديدي بين القاهرة والسويس وأنه لذلك طلب أحد المهندسين المختصين من إنجلترا ، وسأل الباشا (فورنل) عن الوقت الذي يستغرقه إعداد نموذج لمشروع الخط الحديدي فتهمد (فورنل) بإنجازه خلال أربع وعشرين ساعة . وفي مساء الخامس عشر من يناير مثل (فورنل) مرة أخرى أمام (محمد على) وقدم له النموذج الذي أعجب به الباشا ومع ذلك لم يعهد إليه بتنفيذ مشروع الخط الحديدي ، وكان (فورنل) يعنى نفسه بذلك ، إذ كان (محمد على) قد طلب مهندساً إنجليزياً لهذه المهمة . ورغم هذه الصدمة فإن مهمة (فورنل) لم تضعف وحماسته لم تفت ، فما زال أمامه المشروع الأكبر — مشروع توصيل البحرين — الذي من أجله حضروا إلى مصر .

وفي خلال الأحاديث التي جرت بين (محمد على) و (فورنل) في ١٣ و ١٥ يناير حاول (فورنل) إقناع الوالي بتنفيذ مشروع القناة على أساس أن القناة ستكون محايدة ، وذلك لكي يهدى من مخاوف (محمد على) من هذه الناحية^(١) . وقد قام (فورنل) بالاشتراك مع زميله (لامبير) بوضع مذكرة في ١٧ يناير ١٨٣٤ ألحا فيها على (محمد على) بضرورة البدء في مشروع القناة قبل أى مشروع آخر ، وترجمت هذه المذكرة إلى اللغة التركية ، وعهد إلى مسيو (ميمو) بتقديمها إلى الباشا فقدمها في ٢٤ يناير ١٨٣٤^(٢) .

Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX pp 197-8. (١)

D'Allemagne : Ouv. cit., pp. 400-402. (٢)

ولسكن (محمد على) كان في ذلك الوقت يبحث عدة مشروعات لـ لكل منها أنصاره الذين يفضلون مشروعاتهم على غيره ، فهذا (لينان دى بلقون) يدعو لمشروع القناطر ، والسان سيمونيون يطالبون بالقناة ، أما إنجلترا فإنها عن طريق ممثلها (جالواى Galloway) كانت تحبذ إنشاء خط حديدى بين القاهرة والسويس ، وعندما عرضت هذه المشروعات على المجلس العالى فى جلساته التى عقدها أيام ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ يناير ١٨٣٤ تقرر تفضيل مشروع القناطر على غيره من المشروعات .

وقد كان هذا القرار صدمة أخرى (فورنل) ، ولما كان يعتقد أنه ليس من الممكن تنفيذ مشروع القناطر بنجاح لقلة الدراسات الجيولوجية والهيدروغرافية ، فقد عزم على مغادرة مصر والعودة إلى فرنسا . وعندما وصل هذا النبأ إلى أنفانتان وكان لا يزال فى رحلته الاستكشافية فى برزخ السويس — أسرع إلى القاهرة فى ١١ فبراير وحاول ثنى (فورنل) عن عزمه دون جدوى ، فقد صار (فورنل) يعتقد أن الركود سيشمل السان سيمونيين لعدم موافقة (محمد على) على مشروع القناة الذى هو محور نشاطهم . وقد كان لرحيل (فورنل) أبلغ الأثر على نفس الأب (أنفانتان) الذى اعترف بعجزه عن قيادة الأتباع وترك لهم حرية اختيار الطريق الذى يسرون فيه ، وكان من أثر ذلك أن فضل بعض السان سيمونيين اللحاق (بفورنل) والعودة إلى فرنسا .

ورغم رحيل هؤلاء ، وفشل السان سيمونيين فى الحصول على موافقة (محمد على) على مشروع توصيل البحرين فقد عول الأب (أنفانتان) ، ومن ظل إلى جانبه على المشاركة فى المشروعات الأخرى لمل الفرصة تسنح فيما بعد ويتحقق حلمهم فى تنفيذ مشروع القناة .

نشاط السان سيمونيون في مصر

السان سيمونيون ومشروع القناطر :

لقد رأينا كيف فضل (محمد علي) مشروع القناطر على مشروع السكة الحديد والقناة ، فقد كان يعتقد أن القناطر لو أنشئت فإن فائدتها سوف تعود على مصر ذاتها ، أما مشروع السكة الحديد ومشروع القناة فإنه على الرغم مما قد يعود به كل منهما على مصر من فائدة إلا أن الدول الأجنبية تسمى إليهما من أجل فائدتهما كما تعارض إنجلترا فرنسا بمشروع السكة الحديد ، وتعارض فرنسا إنجلترا بمشروع القناة وأيقن (محمد علي) أنه لو فضل أحد المشروعين على الآخر فإنه لا بد وأن يغضب إحدى الدولتين^(١) . ولذلك فإنه بمجرد أن وافق المجلس العالي على مشروع القناطر عهد (محمد علي) في ٣ فبراير ١٨٣٤ إلى (لبنان) ببدء العمل في القناطر واقترح عليه إشراك من يرى فائدة من إشراكه من السان سيمونيون ، وفي ١٢ مايو ١٨٣٤ بدأ العمل رسمياً في إقامة القناطر .

ولم يكن السان سيمونيون راضين عن تفضيل محمد علي لمشروع القناطر على مشروع القناة ؛ إذ كانوا يعتقدون أن مشروع القناة عمل عالمي يعود بالنفع على العالم كله ويؤدي إلى ترابط أقطار العالم وبذلك تتحقق مبادئهم في الوحدة المالية ، بينما كانوا يعتبرون مشروع القناطر — رغم فائدته — مشروعاً يتصف بالأنانية لأنه مشروع قومي بحث لا يفيد إلا مصر وحدها^(٢) .

ومع هذا فمذاعز (محمد علي) تنفيذ مشروع القناطر وكلف (لبنان) بذلك سارع الأب (انطانتان) بوضع خدماته وخدمات زميله (لامبير Lambert) تحت تصرف الباشا للمساهمة في مشروع القناطر ، فقد اعتقد السان سيمونيون أن الطريق الوحيد لتحقيق هدفهم وتنفيذ مشروع القناة هو المشاركة في المشروعات

Husny, H. : Le Canal de Suez et La Politique Egyptienne (١)
(Montpellier 1923) p. 180.

Lettre d'Enfantin au General Soliman Bey, en 16 ma 1834, (٢)
Arsenal 7618 fo. 41 Verso : D'Allemagne, p. 401.

الأخرى في مصر وإثبات كفاءتهم ومقدرتهم حتى تسنح الفرصة لتحقيق حلمهم الكبير ، ومن ثم فإن مشاركتهم في مشروع القناطر تعتبر خطوة في سبيل تنفيذ مشروع القناة ، كما أن الأب (أنفانتان) أراد أن يشغل مهندسيه ومن تبعه من العمال في عمل ما حتى تحين فرصة مشروعهم الأكبر .

ولما كان أمام (لينان) صعوبات ليست بالهينة فقد قبل ما اقترحه عليه (محمد على) من الاستفادة من جهود السان سيمونين وقد وجد فعلاً من بينهم كثيرين من المهندسين الأكفاء . ومنذ أخذ (أنفانتان) على عاتقه المساهمة في المشروع أخذ يبدي به اهتماماً كبيراً ، فرفع إلى (لينان) في ٩ مارس ١٨٣٤ برنامجاً مفصلاً للخطوات التي يجب اتباعها تمهيداً لتنفيذ المشروع ، فأقرح البدء بمسح المنطقة وتجهيز اللواد والمعدات وتمهيد الطرق الضرورية لنقلها ، كما اقترح إقامة مدرسة للهندسة في منطقة القناطر يلتحق بها عدد من الطلبة لتتابعه المرات العملية أثناء دراستهم النظرية (١) .

وكان الأب (أنفانتان) والمهندس (لامبير) على رأس قاعة السان سيمونين الذين أسهموا في مشروع القناطر ، فقد غادر القاهرة في ٩ مارس ١٨٣٤ ومنذ وصولها إلى المنطقة المزمع إقامة القناطر فيها وهما مشغولان بأعمال القياس ، ومسح للمنطقة .

وفي أواخر يونيو ١٨٣٤ بدأت وفود من المتطوعين الجدد يصلون إلى منطقة القناطر وكان في مقدمتهم (لاشيز Lachèze) ، وكان بصحبتهم زوجاتهم ، وبعض النساء حتى لقد فكر (أنفانتان) في الاستفادة من هؤلاء باستخدامهن في تعليم البنات الأوريات في مدرسة تنشأ لهذا الغرض في منطقة القناطر . كما استدعى (أنفانتان) زميله (أوار Hoart) و (برونو Bruneau) ووكانا لا يزالان في فرنسا ، فكتب إليهما منذ ١٦ مارس ١٨٣٤ يستدعيهما « من أجل مشروع للسويس » وكلفهما باصطحاب عدد من المهندسين ، وخاصة أولئك المتخصصين في

الأعمال المائية^(١). وقد وصل (أوار) و (برونو) إلى الإسكندرية في ٢٠ أغسطس ١٨٣٤ وبصحبتها الطيب (فورساد Fourcade) وهو جراح بالجيش الفرنسي ، وحصل على إجازة لمدة عام ، وتوالى حضور أعضاء جماعة السان سيمونيين من فرنسا إلى مصر ولحقوا بالأب (أنفانتان) في منطقة القناطر ، ففي ١٤ ديسمبر ١٨٣٤ وصلت (سوزان دى فوالكان Suzanne de Voilquin)^(٢) ومعهما المهندس الممارى (جوندره Gondret) . ومهندس الناجم (دروو Drouot) .

وقد شارك هؤلاء في العمل في مشروع القناطر وأبحر للمهندسون منهم الكثير من الخطط والتصميمات ، وكان السان سيمونيون يعيشون في منطقة القناطر كمتطوعين ، وقد شهد الفصل الروسى (دوهاميل Duhamel) وفود السان سيمونيين يحضرون للاشتراك في مشروع القناطر . فذكر أنه كان من بينهم كثير من المهندسين المشهورين الذين تلقوا علومهم في مدرسة الهندسة العليا^(٣) .

ويبدو أن (لينان) كان يشعر أن ثمة مؤامرة تدبر لإبعاده عن إداره مشروع القناطر ، واعتقد أن (لأنفانتان) يدا في هذه المؤامرة لى محل هو محل (لينان)^(٤) ، ومن الممكن أن تكون شكوك (لينان) صحيحة ، فلعل (أنفانتان) ليس المفدرة على إتمام مشروع القناطر فرأى أن ينقل إدارة المشروع إلى السان سيمونيين وفيهم كثير من المهندسين الأكفاء ، ولعل (أنفانتان) — بالإشراف الرسمى على المشروع وبخاصة في تنفيذه — يستطيع بعد ذلك إقناع (محمد على) بمشروعاته الأخرى في مصر ، وفي مقدمتها مشروع القناة بين البحرين ، ويؤيد ذلك ما عر عنه (أنفانتان) من أن نجاحهم في مشروع القناطر — رغم عدم إيمانهم به — يدعو إلى الاغتيال ، على اعتبار أنه سيكون تحت إمرته جيش من العمال يقدر بالآلاف يستطيع فها بعد أن يوجههم إلى مشروعاته الأخرى .

(١) Lettre d'Enfantin à Hoart et Bruneau en 16 mars 1834, Arsenal 7618 fo. 21 : D'Allemagne p. 406.

(٢) وقد نشر لها في عام ١٨٦٦ كتاب بعنوان Souvenirs d'une : fille du Peuple, ou La St. Simonienne en Egypte 1834-36.

(٣) Cattaut : Le Regne de Moh. Ali d'après Les Archives Russes en Egypte, T. II, p 158.

(٤) D'Allemagne, R. : Les St. Simoniens, p. 413.

ومهما يكن من أمر اشتراك (أنفانتان) في المؤامرة ضد (لينان) فإن إحساس الأخير يدل على أن (أنفانتان) كانت له من الصفات والمزايا ما جعل (لينان) يخشى على مركزه في تنفيذ مشروعات (محمد علي) من أن ينافسه فيها ، إذ الواقع أن (أنفانتان) كانت له هبة عظيمة ليس فقط بين زملائه بل كذلك عند كل من يتصل به ، ورغم أنه كان قد ترك الهندسة منذ مدة طويلة مما جعل البعض يعتقد بأنه لم يعد قادراً على إدارة أى مشروع ، إلا أن وجوده كان ضرورياً وفعلاً فقد كان العامل الروحي لنشاط الأتباع .

وإزاء هذا الشعور من جانب (لينان) ورغبة من (أنفانتان) في أن يستمر الوثام بين (لينان) وبقية السان سيمونيين المشتغلين في منطقة القناطر غادر (أنفانتان) منطقة العمل وعاد إلى القاهرة حيث أقام لدى (سليمان باشا الفرنساوى) وهناك أتاحت له فرصة التفكير في هدوء في مشروعاته العديدة المقبلة . وقد صحب (أنفانتان) (سليمان باشا) في جولة تفتيشية في الأقاليم فغادرا القاهرة في ٧ أكتوبر ١٨٣٢ ووصلا إلى دمياط ، وفي أثناء الرحلة كان (أنفانتان) يبدي كثيراً من المقترحات بشأن الإصلاحات التي كان يرى وجوب القيام بها والمنشآت التي تجب إقامتها في هذه المناطق ، وعند عودتهما إلى القاهرة في أوائل نوفمبر ١٨٣٤ وجدا فيها المارشال (مارمون Marmont) الذي كان (لويس فيليب) قد أعفاه من منصبه في الجيش الفرنسي فقام برحلته المشهورة إلى الشرق ، وبقي (أنفانتان) في القاهرة حتى ١٤ ديسمبر ١٨٣٢ حين عاد لمزاولة نشاطه في منطقة القناطر .

وبينا السكل يعمل بهمة ونشاط في مشروع القناطر وصل إليهم نبأ اعتزام (محمد علي) إيقاف العمل في المشروع لما لمسه من نقص في الإعداد له وبسبب انتشار وباء الطاعون ، ذلك الوباء الذي فتك بالكثيرين من أتباع (أنفانتان) وهم في ميدان العمل .

وقد كان لتوقف (محمد علي) عن السير في إتمام مشروع القناطر أثره على نفس الأب (أنفانتان) الذي عبر عن عدم دهشته لهذا التصرف واتخذ دليلاً على عدم مقدرة مصر على النهوض وحدها بمثل هذه المشروعات « فكل شيء يشهد بعدم

مقدرة مصر على تنفيذ مشروع مماثل دون الاستعانة بأوروبا»^(١) ، وأيقن (أنفانتان) كذلك أن مشروع القناة لن يخرج إلى حيز الوجود دون معونة الدول الأوروبية .

ورغم انشغال السان سيمونيين في مشروع القناطر فإنهم لم ينقطعوا عن التفكير في مشروعهم الأساسى وهو مشروع القناة ، وفى ذلك يقول الأب (أنفانتان) :
« وسيظل مائلا أمام أعيننا البحر المتوسط والبحر الأحمر والبرزخ الذى سوف نشقه »^(٢) .

وفى أثناء زيارة المارشال (مارمون) خلال عامى ١٨٣٢ — ١٨٣٥ تحدث مع (محمد على) فى ١٤ يناير ١٨٣٥ بخصوص مشروع القناة ، فطلب (محمد على) أن ترفع له مذكرة عن المشروع فاتهمز (أنفانتان) الفرصة وعهد إلى (لامبير) بأعداد مذكرة عن مشروع لتوصيل البحرين على نخط المشروع الذى كان قد وضعه المهندس (لويير) أيام الحملة الفرنسية كما طلب منه كذلك إعداد خريطة لمصر وغير ذلك من البيانات المتصلة بمشروع القناة^(٣) .

إلا أننا لا نكاد نسمع شيئا عن أثر تلك الدراسة ، ولعل هذا يرجع إلى أن (محمد على) وإن كان يشجع الدراسات والأبحاث المتصلة بمشروع القناة ، إلا أنه لم يكن يرى الوقت مناسباً لتنفيذه ، هذا علاوة على ما حل بالسان سيمونيين من كوارث بسبب موت كثير من الأتباع نتيجة تفشى الطاعون وانشغال من تبقى منهم بأعمال أخرى .

السان سيمونيون ونشاطهم التعليمى فى مصر :

ولم تكن مساهمة السان سيمونيين فى مشروع القناطر هى كل ما تمخض عنه نشاطهم فى مصر فى تلك الفترة ، بل كان لهم كذلك نشاط ملموس فى النواحي

(١) Lettre d'Enfantin à Lambert en 7 Août 1835, Arsenal 7615, fo 17, D'Allemagne, p. 415.

(٢) Lettre d'Enfantin à Hoart et Bruneau en 16 Mars 1834, Arsenal 7618 fo. 21 : Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX, p. 212.

(٣) Lettre d'Enfantin à Lambert en 15 Janvier 1835, Arsenal 7618, fo. 112, D'Allemagne, p. 414.

التعليمية وهو ميدان له أهمية كبرى في نظرم حيث كانوا يرون وجوب تعهد تلك النواة التي بذرها (بونابرت) في مصر عندما أنشأ المجمع العلمي خلال حملته المعروفة . وعندما كان (محمد علي) يفكر في إقامة القناطر كان يفكر كذلك في إنشاء مدرسة للهندسة لتخريج مهندسين يستعين بهم في تنفيذ مشروعاته المختلفة وقد رأينا (أنفانتان) يقترح في ٩ مارس ١٨٣٤ على (محمد علي) إنشاء مدرسة في منطقة القناطر ، ولما كان (محمد علي) قد اخفأ بعض تلامذة قصر العيني لدراسة هندسة الري (١٨٣٣) فقد نقلهم بعد عامين إلى منطقة القناطر ^(١) ، وهكذا تحققت فكرة (أنفانتان) وارتفع عدد تلاميذ المدرسة إلى ستين ، لولا أن هذه المدرسة لم يقدر لها الإستمرار بسبب التوقف في بناء القناطر ذاتها ، فضمت عام ١٨٣٦ إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق .

وفي ٢٦ أغسطس ١٨٤٣ رفع (أنفانتان) إلى (سليمان باشا الفرنساوى) - وبناء على طلبه - مشروعاً لإعادة تنظيم المدارس والاشراف عليها ، وقد اقترح (أنفانتان) في هذا المشروع إنشاء (مجلس للتعليم العام) و (لجنة استشارية للعلوم والفنون) وقد تحققت أفكار (أنفانتان) إذ أمر (محمد علي) بتأليف مجلس عام للنظر في تنظيم المدارس وكان (لاميير) من بين أعضائه ، وهو المجلس الذي اقترح عام ١٨٣٦ تقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل : ابتدائية وتجهيزية وخصوصية ووضع اللوائح لكل مرحلة ، وبعد انتهاء مهمته حل المجلس ثم تكونت لجنة في عام ١٨٣٦ أيضاً كانت مهمتها البحث باستمرار في أمور التعليم أى كانت تختص بالشئون الفنية للتصلة بالمدارس ، وكانت لجنة دائمة عرفت باسم (شورى المدارس) أو (مجلس المدارس) ^(٢) .

وعندما أنشأ (محمد علي) مدرسة للمعادن في عام ١٨٣٤ آلت إدارتها — قبل

(١) وعين (محمد بيومى أفندى) أستاذاً عليهم هناك بعد انتهائه من دراسة الهندسة وأشغال القناطر في فرنسا :

د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ٣٦١ .
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٩٧ — ٩٨ .
د. أحمد عزت عبد الكريم : المصدر السابق ص ٩٣ — ٩٧ .

ضمها إلى مدرسة الهندسخانة في عام ١٨٣٦ — إلى (لامبير) الذي كان متخصصاً في أعمال التعدين والمناجم ، بعدما أنشئت مدرسة الهندسخانة ببولاق عام ١٨٣٤ وضمت لها بعد ذلك مدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية ومدرسة المعادن بمصر القديمة تقدم (أفانتان ولامبير) بمقترحات بشأن النظام الواجب اتباعه فيها لكي تكون على نمط مدرسة الهندسة العليا بباريس .

وبعد رحيل (أفانتان) وبعض أتباعه إلى فرنسا في أواخر عام ١٨٣٦ شارك من بقي من السان سيمونيين في كثير من المؤسسات التعليمية ، ففي عام ١٨٣٨ طلب من (لامبير) أن يقوم بالتدريس بمدرسة الهندسخانة ببولاق لأربعة من التلاميذ كانوا قد عادوا من فرنسا دون إتمام دراساتهم ، وفي سبتمبر ١٨٣٨ عين هؤلاء بعد تخرجهم مدرسين بالمدرسة (ولامبير) مديراً لها ، وبشاركة في الإدارة (حكيكيان أفندي) ، وبعد ثلاثة أعوام نقل (حكيكيان) واستقل (لامبير) بإدارة مدرسة الهندسخانة حتى أبريل عام ١٨٤٩ حين خلفه فيها (علي مبارك) (١) .

وقد اهتم (لامبير) بالتهوض بمدرسة الهندسخانة وقد نجحت في تخريج عدد كبير من المهندسين والمدرسين المصريين وكذلك تعريب كثير من الكتب الرياضية ، حتى أنه في عام ١٨٤١ بعد أن تمت التسوية المصرية العثمانية وظهرت الحاجة إلى إعادة النظر في النظام التعليمي في مصر على ضوء حاجات البلاد الجديدة ، قررت اللجنة المشكلة لتنظيم التعليم الإبقاء على مدرسة الهندسخانة لأهمية خريجها ، واعترفت اللجنة بالتقدم العظيم الذي أحرزته المدرسة في النهضة العلمية ، وعزت ذلك إلى دقة ناظرها (لامبير) وهمة أساتذتها (٢) .

ولما تولى (إبراهيم) الحكم في يونيو ١٨٤٨ عقب اعتزال أبيه وشرع في تنظيم التعليم على أسس جديدة كان ساعده الأيمن في ذلك (لامبيريك) ناظر مدرسة الهندسخانة . ولم تسكن جهود (لامبير) قاصرة على مدرسة الهندسخانة ، بل كان كذلك يدرس الرسم بمدرسة السوارى كما ساهم أيضاً في عام ١٨٣٦ في اللجنة التي

(١) أمهن سامى : التعليم في مصر ص ٤٧ من الملحقات .

(٢) د . أحمد عزت عبد الكريم : التعليم في عصر محمد علي ص ١٣٠ ، ٣٦٨ .

نيط بها تنظيم مدرسة الطبوجية (١) .

ولم يكن (لامبير) هو الوحيد من السان سيمونيين عندما ساهم بهذا النصيب الكبير في خدمة المؤسسات التعليمية في مصر ، فهذا الطبيب (بيرون Perron) أحد أفراد جماعة السان سيمونيين يتولى نظارة مدرسة الطب البشرى منذ عام ١٨٤١ (٢) وقد أنعم عليه برتبة القائمقام في أواخر عام ١٨٤٥ وظل في منصبه حتى استقال عام ١٨٤٦ وعاد إلى فرنسا ، كما اشترك (بيرون) مع (سليمان باشا) و (لامبير) في لجنة تنظيم التعليم عام ١٨٤١ .

وقد تولى (رونو Brunoau) إدارة مدرسة الطبوجية بطرة من مارس ١٨٤٠ حتى أبريل ١٨٤٧ (٣) وأقامها على النموذج الذى كانت تسير عليه مدرسة الهندسة العسكرية بباريس ، كما تولى (ديشارم Descharmes) إدارة مصلحة الطرق والكبارى ما بين عامى ١٨٣٨ ، ١٨٤٥ .

ومنذ مارس ١٨٣٤ وضع (أوليفيه Olivier) و (توشيه Toché) (و (بوفور Beaufort) مشروعاً لتنظيم مزرعة نموذجية لى تكون نواة لمدرسة زراعية ، وكان الأب (أنفانتان) متعمساً لهذا المشروع ورأى أن يتولى إدارته رجل كفء ولذلك أرسل يستدعى أحد أعوانه الخالصين من فرنسا وهو (بتي Petit) أحد خريجي مدرسة الزراعة فى (روفيل Roville) وقد أوضح (أنفانتان) لزميله (بتي) فى رسالته إليه أنه وإن كان المشروع الرئيسى بالنسبة لهم هو مشروع القناة بين البحرين إلا أنه من أجل الوصول إلى هذا الهدف لا بد من المساهمة فى النشاط القائم فى البلاد فى مختلف النواحي ، ولذلك فإن (أنفانتان) كان يعتبر مشروع المزرعة النموذجية عظيم الأهمية رغم ما قد يبدو من ضآلته (٤) .

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم : المصدر السابق ص ٣٨٠ — ٣٨١ ، ٤٠٠ — ٤٠٩

(٢) Oeuvres de St. Simon T. XII, pp. 13-15

(٣) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ٥٢ (من الملحقات) .

(٤) Lettre d'Enfantin à Petit en 31 Mai 1834, Arsenal 7618, fos. 48-50 : D'Allemagne, p. 419.

واي (بقى) نداء زعيمه ووصل إلى مصر في نوفمبر ١٨٣٤ يرافقه زميل له يدعى (بسكو دى دومبال Dusco du Dombale) وفي ٨ ديسمبر ١٨٣٤ قدم هذا الأخير مذكرة حول تنظيم المزرعة النموذجية بين فيها أن الهدف من إنشاءها هو إقامة مدرسة زراعية على نمط مدرسة (روفيل) في فرنسا ، وهدفها تعليم الزراعة لمائة من الفتيان سنوياً ، والعمل على إدخال آلات الزراعة الحديثة للتقليل من نفقات الأعمال الزراعية وتحسين سلالات الحيوانات وتهجين أصناف جديدة والاستفادة من الألبان في صناعة الجبن وأقلية دودة الحرير . وطالب (بسكو دى دومبال) في مذكرته التي رفعت إلى محمد علي بمساحة من الأرض تتراوح بين ١٠٠٠ — ١٢٠٠ فدان وعاليها المباني اللازمة ، ومائة من التلاميذ ممن تتراوح أعمارهم بين ١٤ — ١٨ سنة ، وكذلك للمدرسين اللازمين لتدريس العلوم المختلفة ^(١) ، ولم يطلب صرف مرتبات له ولزملائه في هذه المدرسة بل طالب بالمشاركة في أرباحها ، وكانت مدرسة الزراعة التي تأسست أولاً بنبروه عام ١٨٣٦ ثم انتقلت إلى شبرا في عام ١٨٣٩ هي نتاج هذه الفكرة .

وبينما كان الأب (أنفانتان) ومعه (لامير) منهمكين في مشروع القناطر كان كثير من أتباع (سان سيمون) في مصر يسعون لشغل بعض المناصب فهذا (كولان Collin) منهمك في إعداد إحصاء لمصر ، كما تولى (لامي Lamy) إنشاء حظيرة للعاشية ، وأصبح (كونيّا Cognat) و (شاربان Charpin) طبيين بالقناطر و (الربك Alric) يقوم بعمل ثمنال نصفى (لمحمد علي) كما طلب (كلوت بك) من (ماشيرو Machereau) أن يقوم بالتدريس في مدرسة أبى زعبل ، وكان (أوربان Urbain) و (جرانال Granaal) يقومان بتدريس اللغة الفرنسية بمدرسة المشاة بالحانكة ، وهكذا تغفل السان سيمونيون في كثير من نواحي النشاط في مصر تحقيقاً لأحد الأهداف التي رسموها لأنفسهم قبيل رحيلهم من فرنسا وذلك بالمساهمة في المشروعات المختلفة حتى تثبت أقدامهم في البلاد وتتاح لهم فيما بعد فرصة تحقيق مشروعهم الأكبر — مشروع القناة بين البحرين .

وقد كان (أنفانتان) سعيداً بهذا النجاح الذي حققه أتباعه في مصر ، ومع

ذلك لم يكن جميع أفراد جماعة السان سيمونيين في مصر يقومون بأعمال تدر عليهم معاشهم؛ فقد تابعت وفودهم حتى ازداد عددهم وصار من الصعب على الأب (أنفانتان) أن يدبر مصدر الرزق لهم جميعاً حتى لقد اضطر كثير منهم إلى العودة إلى فرنسا .

ولم يلبث الطاعون أن تفشى في يناير ١٨٣٥ وراح ضحيته عدد كبير من جماعة السان سيمونيين في مصر ، وعندما توفي المهندس (أوار Hoart) في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٣٥ كان لموته أسوأ الأثر في نفوس زملائه حتى أنهم اعتبروا أن رسالتهم قد وصلت إلى نهايتها بوفاته (أوار) .

وبسبب انتشار الطاعون رحل (أنفانتان) عن القاهرة بصحبة بعض الأتباع ، فعادروها في ٢٥ فبراير ١٨٣٥ على إحدى المراكب في النيل واتجهوا جنوباً ، وفي طريقهم زاروا أبيدوس ومعبد دندره ووصلوا إلى الأقصر حيث زاروا الآثار المصرية القديمة ، وهناك تكررت مقابلات (أنفانتان) مع (ميمو) قنصل فرنسا الذي كان قد لجأ هو الآخر ومعه كثير من أعضاء الجالية الفرنسية إلى الصعيد هرباً من الوباء ، وظل (أنفانتان) في الأقصر حتى غادرها في ١٦ سبتمبر فوصل إلى القاهرة في ٢٣ منه عن طريق النيل .

ولم يكن الموت هو المصير الوحيد الذي كان ينتظر أتباع (سان سيمون) في مصر؛ فهذا (أوربان Urbain) يتخلى عن كاثوليكيته ويعتق الإسلام منذ ٨ مايو سنة ١٨٣٥ ، وحذا حذوه (ماشيرو Machereau) الذي تسمى باسم (محمد أفندي) وتزوج من سيدة مسلمة أنجب منها أربع فتيات سماهن بأسماء عربية^(١) ، وقد كان هذا الحادث موضع سخرية (محمد علي) إذ عبر عن شماته في جماعة (السان سيمونيين الذين وفدوا إلى مصر » لتحويل المسلمين عن دينهم فإذا باثنين منهم يتحولان إلى الإسلام »^(٢) .

وفي ٨ فبراير ١٨٣٦ احتفل من بقي في مصر من السان سيمونيين بعيد ميلاد

Carré : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, T. I, (١)
p. 267.

Lettre d'Enfantin à Algae St. Hilaire en 5 Octobre 1835, (٢)
Arsenal 7827 : D'Allemagne, p. 422.

الأب (أنفانتان) فاجتمع اثنان وعشرون منهم حوله معبرين عن حبهم وولائهم له ،
وأمضوا الليل في حديث ورقص وشراب (١) .

إلا أنه كان لا انتشار الطاعون أثره في تفرق الأتباع ؛ فغادر بعضهم البلاد عائدين
إلى فرنسا ، علاوة على من اختطفهم اللوث ووصل عددهم إلى خمسة عشر مائتا —
كما يقول (أنفانتان) « في ساحة الشرف ، في سبيل العمل الذي كرسوا له حياتهم
تاركين لنا — ولى على وجه الخصوص — مهمة وشرف متابعة السير بعزم في ذلك
العمل الذي سقطوا تحت وطأته » .

ولذلك غادر (أنفانتان) القاهرة في ٢٣ أكتوبر ١٨٣٦ مع ليف من
أعوانه إلى الإسكندرية التي أبحر منها في الثلاثين من نفس الشهر فوصل مرسيليا
في ٧ يناير ١٨٣٧ تاركا في القاهرة بعض الأتباع مثل (لامبير) و (برنو) وغيرها
والبعض الآخر في الإسكندرية . وعندما عاد (أنفانتان) إلى فرنسا لم يقابل بالحماس
الذي كان يحلم به عندما غادرها إلى مصر ، وهكذا انفرط عقد السان سيمونيين
في مصر دون أن يقدر لمشروعهم — مشروع القناة بين البحرين — أن يتحقق ،
إلا أن فشلهم لم يجعل اليأس يتطرق إلى نفوسهم ، بل استمر نشاطهم وظلوا متمسكين
بالمشروع ، وإذا كان لم يقدر للمشروع أن يخرج إلى حيز التنفيذ إلا على يد (فردينان
دي لسبس) فإن التاريخ يسجل للسان سيمونيين فضلا لا ينكر بل يذكر ويقدر .